

المدينة الثانية

مدينة الأصول

(أصول الحكمة والكلام)

"إذا أردت الوصول فعليك بالأصول" (١)

"قال هارون الرشيد لمستشاره الأصمعي: أنت أحفظ منا، ونحن أعقل منك، لا تعلمنا في الملاء، ولا تسرع إلى تذكيرنا في الخلوة، وتركنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تزد، وإياك والبدار إلى تصديقنا وشدة التعجب مما يكون منا.. وعلمنا من العلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر، وفي أعطاف الخطب، وفواصل المخاطبات.. ودعنا من حوشي الكلام (٢) وغرائب الأشعار، وإياك وإطالة الحديث إلا أن نستدعي منك ذلك.. ومتى رأيتنا صارفين عن الحق، فأرجعنا إليه ما استطعت، من غير تقرير بالخطأ ولا إضجار بطول الترداد".

وقال العشاري:

استغفر الله من قول بلا عمل

ومن جميع دواعي السوء واللمم

وقال الشافعي:

وأن عرى الإيمان قول مبين

وفعل زكي قد يزيد وينقص

"من نصب نفسه إماماً في الحكمة، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة (٣) والرأي واللفظ والإخوان والمعاشرين، ليكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكماء يروق الأسماع، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب. ومعلم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم، إذا لم يبدأ بنفسه" (٤).

"الحكمة كالعروس تريد البيت خالياً" (٥)

١- من أقوال جماعة الدعوة والتبليغ

٢- حوشي الكلام: غريب الكلام

٣- الطعمة: مكان الرزق

٤- بشر بن الحارث

٥- حكيم فارسي

تعود على العادات الحسنة والأصول الصحيحة وهي سوف تصنعك

قل ما تشاء إن كلام يغنم

واسكت كذا حيث السكوت أسلم

وإن تكن قلت فقل ما تعلم

واستسهل الألفاظ فيما يفهم^(١)

وإن سكت فكن ذا فكرة وإذا

نطقت فليبد منك المنطق المُلحاً

وقد يقال كلام المرء نسبته

إن الإناء بما في بطنه رشحا^(٢)

"لا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في المنظر إلا مع المخبر، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصديق إلا مع الوفاء، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع حسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة والأمن والسرور".^(٣)

أصول الحكمة والكلام

أولاً: الكلمة المناسبة:

"من أراد معنى كريماً فليتمس لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف".^(٤)

قال وزير المكتفي القاسم بن عبيد الله: "الكلام الحسن مصائد القلوب"^(٥)

الكلمة الطيبة تنقلك من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن السفه إلى الحلم، وتوصلك إلى الجنة، وتقربك إلى الله تعالى.

"روي أن عيسى - عليه السلام - قال لرجل لا يستحق: "حفظك الله"، فقيل له: أتقول هذا لمثل هذا؟ فقال: لسان عودٍ على الخير فهو ينطق به لكل أحد".

١- حسن حسني الطويراني

٢- اللواح

٣- التذكرة الحمدونية- لابن حمدون

٤- بشر بن المعتمر

٥- نكت الوزراء- للجاجرجي

"قال المنصور لرجلٍ أحمد منه أمراً: سل حاجتك. فقال: يبيك الله يا أمير المؤمنين. قال: سل، فليس يمكنك ذلك في كل وقت. فقال: ولم يا أمير المؤمنين؟ فوالله لا أستقصر عمرك ولا أرهب بخلك ولا أغنم مالك، وإن سؤالك لزين، وإن عطاءك لشرف، وما على أحدٍ بذل وجهه إليك نقصٌ ولا شينٌ. فأمر حتى ملئ فوه دراً" (١)

"العاقل لا يتكلم إلا إذا تثبت من صحة الكلام، فإذا ثبت لديه صحته نظر: فإن كان في نشره حفز للخير واجتماع ألفة؛ نشره وأظهره، وإن كان الأمر بخلاف ذلك؛ كتم الأمر وستره".

ولقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يحدث المرء بكل ما سمع، فقال فيما رواه الإمام مسلم: "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع" (٢)

إِنْ قَلْتَ قَوْلًا فَكُنْ لِبَيْبًا

وَكُلُّ قَوْلٍ لَهُ جَوَابٌ (٣)

إِذَا لَمْ يَضِقْ قَوْلٌ عَلَيْكَ فَقُلْ بِهِ

وَإِنْ ضَاقَ عَنْكَ الْقَوْلُ فَالصَّمْتُ أَوْسَعُ (٤)

"عليك أن تختار أجمل الكلام، وأحسن الألفاظ أثناء مخاطبة الناس، كما تختار أطيب الطعام، وأن ترد على ما تسمعه من الناس بلباقة وتهذيب".

قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (٥)

"سئل الشافعي - رحمه الله تعالى - عن مسألة، فسكت، قيل له: لم لا تجيب؟ فقال: حتى أعلم الفضل في سكوتي أو في جوابي". (٦)

"ومن أحسن كنيات (الصاحب، وأبي إسحاق الصابي)، وغيرهما من البلغاء عن ذكر موت الملوك والرؤساء قولهم: انقضت أيامه، استأثر الله به. خانه عمره. لم تسمح النوائب بالتجافي عن مهجته.

١- عيون الأخبار- لابن قتيبة

٢- رياض الصالحين - للإمام النووي

٣- أبو مدين التلمساني

٤- أبو العتاهية

٥- سورة الحج (آية ٢٤)

٦- إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين- للبكري

أجاب داعي ربه. نفذ قضاء الله فيه. لحق بالسبيل التي لا احتراز منها. انتقل إلى جوار ربه. دعاه الله فأجاب دعاه ولبى نداءه. نقله الله إلى دار رضوانه ومحل غفرانه. انقلب إلى كرامة الله وعفوه. كتب له سعادة المحتضر، وأفضى به الأمر إلى الأجل المنتظر. طرقة طارق المقدار، واختار الله عزله بنقله من دار البوار إلى دار القرار^(١)

"حدثنا وهيب بن خالد، قال: قال إياس بن معاوية: من المسائل ما لا ينبغي للسائل أن يسأل عنها ولا للمجيب أن يجيب فيها، فإن كانت مسألة من غير هذا؛ فليسأل، وإن كانت من هذا؛ فليمسك. قال: فهابوه، فما نظر أحد منهم إليه حتى قام"^(٢)

"جاء رجل إلى فضيل بن بزوان، فقال: إن فلاناً يقع فيك، فقال لأغيظن^(٣) من أمره، يغفر الله لي وله، وقيل له: من أمره؟ قال: الشيطان".

"قال رجل لابن شبرمة: أسألك؟

قال: إن كانت مسألتك لا تضحك الجلوس، ولا تزري بالمسؤول فسل".

وَلَخَيْرُ قَوْلِ الْمَرْءِ أَصْدَقُهُ

وَلَخَيْرُ فِعْلِ الْمَرْءِ أَنْفَعُهُ^(٤)

"قيل في الأجوابات التي هي أصعب الكلام كله مركباً، وأعزّه مطلباً، وأغمضه مذهباً، وأضيقه مسلكاً، لأنّ صاحبه يُعجل مُنْجَاةَ الْفِكْرَةِ، واستعمال القريحة؛ يوم^(٥) في بديهة نقض ما أبرم^(٦) في رويّة؛ فهو كمن أخذت^(٧) عليه الفجّاج^(٨)، وسُدّت عليه المَخارج؛ قد تعرّض للأسنة^(٩)، واستهدف للمرامي؛ لا يدري ما يُقرع^(١٠) به فيتأهب له، ولا ما يفجؤه من خصمه فيقرعه بمثله.

١- تحسين القبيح وتقييح الحسن- للثعالبي

٢- وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان- لابن خلكان

٣- لأغيظن: لأغضب

٤- أبو العتاهية

٥- يوم: يريد ويشير

٦- أبرم: أحكم وقوي

٧- أخذت: ضاق عليه سبيلها

٨- الفجّ: الطريق الواسع البعيد

٩- الأسنة: الرماح

١٠- يقرع: يضرب به بقوة

لا سيّما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بزمامه، بعد أن تروى فيه واحتفل، وجمع خواطره واجتهد، وترك الرأي يغيب^(١) حتى يختم، فقد كرهوا الرأي الفطير،^(٢) كما كرهوا الجواب الدبري^(٣)؛ فلا يزال في نسج الكلام واستثناسه، حتى إذا اطمأن شارده، وسكن نافرّه، صكّ به خصمه جملة واحدة! ثم إذا قيل له: أجب ولا تخطئ، وأسرع ولا تبطئ - تراه يجاوب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفصل، وينفذ إلى المقاتل، كما يرمى الجندل^(٤) بالجنديل، ويقرع الحديد بالحديد؟ فيحلّ به عراه، وينقضّ به مزائره، ويكون جوابه على كلامه، كسحابة كبّدت عجاجة.^(٥) فلا شيء أعضل^(٦) من الجواب الحاضر، ولا أعزّ من الخصم الألد، الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه بقول كمثّل النار في الحطب الجزل.

وقال النبيّ - عليه الصلاة والسلام - لعمرو بن الأهمم: أخبرني عن الزبيرقان؟ قال: مطّاع في أدانيه، شديد العارضة^(٧) مانع لما وراء ظهره. قال الزبيرقان: والله يا رسول الله لقد علم مني أكثر من هذا، ولكن حسدني. قال عمرو بن الأهمم: أما والله يا رسول الله، إنه لزمر المروءة،^(٨) ضيق العطن^(٩) أحقّ الوالد، لئيم الخال، والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، رضيت عن ابن عمي فقلت فيه أحسن ما فيه ولم أكذب، وسخطت عليه فقلت أقبح ما فيه ولم أكذب. فقال النبيّ - عليه الصلاة والسلام -: إن من البيان سحرا^(١٠)

وانطق بما أوتيت من حكمة

والنطق زنه قبل وقع الكلام^(١١)

"قيل لأحمد بن يوسف: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير"^(١٢)

-
- ١- يغيب: خفي وتواري
 - ٢- الفطير: ما أُعجل به قبل نضجه
 - ٣- الدبري: المتأخر بعد فوات الحاجة
 - ٤- الجندل: القرن
 - ٥- عجاجة: الغبار والدخان
 - ٦- أعضل: أمتع
 - ٧- شديد العارضة: ذو جلد وصرامة
 - ٨- زمر المروءة: قليل المروءة
 - ٩- ضيق العطن: ضيق الصبر والحيلة عند الشدائد وبخيل
 - ١٠- العقد الفريد - لابن عبد ربه
 - ١١- الحبسي
 - ١٢- خاص الخاص - للشعالبي

قيل لأفلاطون: "لم لا تجمع الحكمة والمال، فقال: لعز الكمال" (١)

وقيل في ذم أحدهم "ما له أصل ولا فصل" (٢)

والكلمة غير المناسبة، قد توقع السائل فيما يسوؤه من رد موبخ مسكت. قال ابن عبد البر: قال تميم بن نصر بن يسار لأعرابي: هل أصابتك تخمة (٣)؟ قال: أمّا من طعامك فلا.

"البيان: إظهار المقصود بأبلغ معنى" (٤)

بعض العبيد حر

بعض الكلام در (٥)

أجد الكلام إذا نطقت فإنما

عقل الفتى في لفظه المسموع (٦)

"قبل أن تلقي خطاباً- حتى لو طلب إليك ذلك بإلحاح حار- تساءل عما إذا كان ما ستقوله أكثر أهمية من الصمت". (٧)

"من يزرع الشوك لم يحصد به عنباً" (٨)

وقيل:

"ليس كل ما يُعلم يقال، ولا كل ما يُقال يفهم، ولا كل ما يُفهم يعمل به، ولا كل ما يُعمل به صحيح" (٩)

"حضر أعرابي سُفْرَةَ (١٠) سليمان بن عبد الملك، فجعل يمر إلى ما بين يديه، فقال له الحاجب: مما يليك فكل يا أعرابي؛ فقال: من أجذب (١١) انتجع، (١٢) فشق ذلك على سليمان، فقال للحاجب: إذا خرج

١- الإعجاز والإيجاز- للثعالبي

٢- الفصل: اللسان

٣- تخمة: داء يصيب الإنسان بسبب كثرة الطعام

٤- الزمخشري

٥- ابن الهبارية

٦- ابن دراج القسطلي

٧- سعدي الشيرازي

٨- صالح بن عبد القدوس

٩- قول مشهور

١٠- سفرة: الطعام الذي يوضع على المائدة

١١- أجذب المكان: أصابه فحط

١٢- انتجع: ذهب لطلب العشب والكلاء

عنا فلا يعد إلينا. وشهد بعد هذا سُفرتَه أعرابي آخر، فمر إلى ما بين يديه أيضاً، فقال له الحاجب: مما يليك فكل يا أعرابي؛ قال: من أخصب تخير. فأعجب ذلك سليمان، فقربه وأكرمه وقضى حوائجه^(١).

فانظر إلى تحري الكلمة المناسبة كيف صنعت بهذا الأعرابي مع الخليفة.

وقيل: "المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم والمتخلجة^(٢) في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم - مستورة خفية، وبعيدة وحشية، محجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوشي^(٣) مألوفاً، والغفل^(٤) موسوماً، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل - يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع^(٥). والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحُه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم، والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"^(٦).

عبيد الله بن يحيى - وزير مروان بن محمد وآخر ملوك بني أمية -، كان يقول: البلاغة ما رضىته الخاصة وفهمته العامة"^(٧).

١ - العقد الفريد - لابن عبد ربه الأندلسي

٢ - المتخلجة: المضطربة

٣ - الوشي: زين الكذب

٤ - الغفل: السهو

٥ - أنجع: أنفع

٦ - البيان والتبيين - للجاحظ

٧ - اللطف واللطائف - للثعالبي

وانظر كيف تلين الحجارة بالحكمة:

وإذا نطقوا جاءوا بأبلغ حكمة

يلين لها صلد^(١) وجامد أحجار^(٢)

قيل لعيسى - عليه السلام - : دُلْنَا على صالح عمل نستحق به الثواب ، فقال : لا تنطقوا أبداً ، فقالوا : وكيف نستطيع ذلك ؟ فقال : لا تنطقوا إلا بخير .

ولا تأتي الكلمة المناسبة إلا بالعلم ، فعن معاذ بن جبل : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ومنار^(٣) سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والمحدث في الخلو ، والجليس في الوحدة ، والصاحب في الغربة والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والزين عند الأخلاء ، والسلاح على الأعداء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة ، وفي الهدى أئمة ، تقتص آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، ويُنتهى إلى رأيهم ، وترغب الملائكة في خلتهم^(٤) ، وبأجنتها تمسحهم ، وفي صلاتها تستغفر لهم ، ويصلي عليهم كل رطب ويابس ، حتى حيطان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، والأرض وخزائنها ، لأن العلم حياة القلب من الجهل ، ونور الأبصار ومصايحها في الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى ، ومجالسة الملوك في الدنيا ، ومرافقة الأبرار في الآخرة . والفكر في العلم يعدل الصيام ، ومذاكرته تعدل القيام ، وبالعلم توصل الأرحام ، وتفصل الأحكام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحده ، وبالعلم يُطاع ويعبد ، والعلم إمام العقل هو قائده ، يرزقه الله السعداء ، ويحرمه الأشقياء^(٥) .

سبحان ربي تبارك الله ما

أشبهه بعض الكلام بالعسل^(٦)

جمع الكلام إذا لم يحتفل أدباً

لم يكتسب من جناه لذة الحكم^(٧)

١- صلد: صلب

٢- مصطفى الترتزي

٣- منار: موضع النور والعلامة

٤- خلتهم: صداقتهم

٥- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار- للزمخشري

٦- الثعالبي

٧- أبو الفتح البستي

وقيل: "سلاح اللثام قبيح الكلام".

قال صاحب مؤيد الدولة: "رب لطائف أقوال تنوب عن وظائف أموال" (١)

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -:

"إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر" (٢) ..

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تُرِدْ
أَنْ تُتِمَّ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ نَعَم
حَسَنٌ قَوْلٌ نَعَمٍ مِنْ بَعْدِ لَا
وَقَبِيحٌ قَوْلٌ لَا بَعْدَ نَعَمٍ
إِنَّ لَا بَعْدَ نَعَمٍ فَاحِشَةٌ
فَبِإِذَا قُلْتَ نَعَمٍ فَاصْبِرْ لَهَا
بِنَجَاحِ الْوَعْدِ إِنَّ الْخُلْفَ ذَمٌّ
وَإِعْلَمَ أَنَّ الذَّمَّ نَقْصٌ لِلْفَتَى
وَمَنْ لَا يَتَّقِ الذَّمَّ يُذَمُّ (٣)

يقول الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي:

"ومن القواعد التي التزمناها، أن نخاطب الناس بلغة عصرهم التي يفهمون، متجنباً وعورة المصطلحات الصعبة، وخشونة الألفاظ الغريبة، متوخياً السهولة والدقة".

وقد جاء عن الإمام علي:

"حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟! "

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه -:

١- نكت الوزراء - للجرجي

٢- المستطرف في كل فن مستطرف - للأبشيبي

٣- المتقب العبدى

"لسان العاقل وراء عقله، وقلب الأحمق وراء لسانه".^(١)

"من لم يحفظ ما بين فكيه ظل يقرب كفيه"^(٢)

وقال الشاعر:

وصن الكلام إذا نطقت ولا تكن

عجلاً بقولك قبلما تفهم

لم تعط مع أذنيك نطقاً واحداً

إلا لتسمع ضعف ما تتكلم^(٣)

واسمع هذه اللطيفة من اليابان:

"كلمة مناسبة واحدة يمكن أن تدفئ ٣ شهور باردة"^(٤)

لا خير في حشو الكلام

إذا اهتديت إلى عيونه^(٥)

وقيل: "رأى المَلِكُ في منامه رؤيا أزعجته، فاستيقظ فزعاً مرعوباً.. واستدعى مُفسِّراً للأحلام، وقصَّ عليه رؤيته: قائلاً: رأيت في المنام كأن أسناني تتساقط الواحدة تلو الأخرى، فما تأويل ذلك؟ أطرق المُفسِّرُ هنيهة ثم رفع رأسه يقول إن صدقت رؤيتك فسيموت أهل بيتك كلهم في حياتك. فغضب الملك وتشاءم من هذا التفسير المؤلم.. وأمر بقتل العالم المُفسِّر للأحلام؟!!! وطلب حضور مُفسِّرٍ آخر، فجيء به إليه فقص عليه نفس الرؤيا، فأجابه بنفس الجواب السابق.. سيموت أهل بيتك في حياتك.. فأمر بقتله أيضاً؟!

وجاءوا له بمُفسِّرٍ ثالث فقصَّ عليه الرؤيا، وأنه رأى أسنانه تتساقط الواحدة تلو الأخرى.. وبعد لحظات تفكير وتأمل، قال المُفسِّرُ الثالث: إن صدقت رؤيتك فأنت أطول أهل بيتك عمراً إن شاء الله. فابتهج الملك وتهللت أسارير وجهه ارتياحاً من هذا التأويل وأمر بإعطاء هذا المُفسِّر جائزة ثمينة!! فتأمل أيها القارئ الكريم.. هل تجد اختلافاً في المعنى بين التفسيرين؟ كلا.. فهما يثبتان حقيقة واحدة، هي أن الملك يبقى بعد أن يفقد أهل بيته. إذاً فلماذا تغير موقف الملك تجاه المفسرين، فأمر بقتل الأولين بينما أمر بالجائزة للثالث؟.

١- نهج البلاغة - للإمام علي بن أبي طالب

٢- أطواق الذهب في المواعظ والخطب ٤٥ - للزمخشري

٣- عيون الأشعار وروائع الأفكار - لهشام الحمصي

٤- مثل ياباني

٥- أبو العتاهية

بملاحظة عابرة، تدرك أن السريكمين في استخدام الكلمة المناسبة، فالحقيقة هي هي ولكنها عرضت في الأول بأسلوب يدعو إلى التشاؤم والانعراج.. بينما في المرة الأخيرة عرضت بأسلوب يطفح بالتفاؤل والارتياح.

وهنا تظهر لنا أهمية استخدام الكلمة المناسبة، في عرض أي حقيقة، ودورها في تحديد موقف الناس من القضية المطروحة.. فحتى لو كانت القضية حقاً، ولكن لم تسعفها الكلمة المناسبة في العرض.. فإن تقبل الناس لها لا يكون مضموناً.. بينما لو كانت باطلة واستخدم لها الكلمة المناسبة في العرض فقد ينخدع بذلك كثير من الناس".

وقيل في الكلمة المناسبة: "ألفاظ كغمزات الألفاظ"^(١)، ومعان كأنها قلب عان. استعارت حلاوة العتاب بين الأحباب، واسترقت تشاكي العشاق يوم الفراق. وألفاظ لها من الهواء رفته، ومن الماء سلاسته،^(٢) ومن السحر نفثته.^(٣) ومن الشهد^(٤) حلاوته. كلام كبرد الشباب، وبرد الشراب. كلام يهدي إلى القلوب روح الوصال،^(٥) ويهب على النفوس هبوب الشمال.

ألفاظ حسبته لرقته منسوخة من صحيفة الصبا،^(٦) وظننتها لسلاستها مكتوبة من إملاء الهوى. كلام كما هب نسيم السحر، على صفحات الزهر، ولذ طعم الكرى^(٧) بعد برح^(٨) السهر. كلام يقطر صرفاً،^(٩) كلام كنسيم وعهد الصبا. كلام هو سمر بلا سهر، وصفو بلا كدر^(١٠).^(١١)

"لما ورد قتيبة بن مسلم خراسان قال: من كان في يده شيء من مال عبدالله بن خازم فلينبذه،^(١٢) ومن كان في فيه^(١٣) فليلفظه، ومن كان في صدره فلينفثه،^(١٤) فتعجبوا من حسن تفصيله".^(١٥)

١- الألفاظ: مؤخرة العين مما يلي الصدغ

٢- سلاسته: سهولته ورقته

٣- نفثته: الهامه

٤- الشهد: العسل

٥- الوصال: من وصل: جمع ولأم

٦- الصبا: الشوق والحنان

٧- الكرى: النعاس والنوم

٨- برح: شدة

٩- صرفاً: جمالاً وحلاوة

١٠- كدر: غضب

١١- من غاب عنه المطرب- لأبي منصور الثعالبي

١٢- فلينبذه: يطرحه

١٣- فيه: فمه

١٤- ينفثه: ينفخه

١٥- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار- للزمخشري

قال أنو شروان: "لا تغتر^(١) بصواب الجاهل، فإن ذلك كزلة اللبيب".^(٢)

"واصطنع كسرى أنو شروان رجلاً لم يكن له نسب، فقيل له في ذلك، فقال: اصطناعنا إياه نسب له. ووفد حاجب بن زرارة على كسرى، فاستأذن عليه، فقال كسرى لحاجبه: سله من هو؟ فقال: رجل فيهم، فلمّا مثل بين يديه قال له من أنت؟ قال: سيد العرب! قال: أأنت زعمت أنك رجل منهم؟ قال: منذ أكرمتني وأجلستني صرت سيدهم. فحشاً فاه لآلئ^(٣)".

كم من كلام لا يفيدك كلمة

ولكلمة فيها الكلام يؤم^(٤)

ولكي تحفظ دينك ونفسك - يقول لك الشافعي:

إذا رمت أن تحيا سليماً من الأذى

ودينك موفور وعرضك صين^(٥)

فلا ينطقن منك اللسان بسوءة

فكلك سوءات وللناس أعيين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى

ودافع ولكن بالتي هي أحسن^(٦)

واقراً هذه الكلمات من رسالة أم إلى ابنها:

إياك أن تتكلم في الأشياء،

وفي الناس،

إلا بعد أن تتأكد من صحة المصدر،

وإذا جاءك أحد بنياً فتبين... قبل أن تتهور،

وإياك والشائعة،

١- تغتر: تتخذ

٢- التمثيل والمحاضرة - للثعالبي

٣- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء - للأصفهاني

٤- جرمانوس فرحات

٥- صين: محفوظ من الأذى

٦- ديوان الشافعي - للشافعي

لا تصدق كل ما يقال ولا نصف ما تبصر،
إذا ابتلاك الله بعدو،، قاومه بالإحسان إليه،
ادفع بالتي هي أحسن،
أقسم بالله.. إن العداوة تنقلب حباً.
وإذا أردت أن تكتشف صديقاً،
سافر معه،
ففي السفر ينكشف الإنسان،
يذوب المظهر.. وينكشف المخبر،
ولماذا سمي السفر سفراً؟
إلا لأنه عن الأخلاق والطبائع يسفر.
وإذا هاجمك الناس وأنت على حق،
أو قذعوك^(١) بالنقد.. فافرح،
إنهم يقولون لك: أنت ناجح ومؤثر،
فالكلب الميت.... لا يُركل^(٢)،
ولا يُرمى.... إلا الشجر المثمر.
عندما تنتقد أحداً،
فبعين النحل تعود أن تبصر،
ولا تنظر للناس بعين ذباب،
فتقع على ما هو مستقذر.
سأذهب بك إلى عرين^(٣) الأسد،
وسأعلمك أن الأسد لم يصبح ملكاً للغابة؛
لأنه يزأر،

١- قذعوك: شتموك بكلام قبيح

٢- يركل: يرفس برجله

٣- عرين: بيت الأسد

ولكن لأنه.. عزيز النفس... لا يقع على فريسة غيره،
مهما كان جائعاً... يتضور^(١).
لا تسرق جهد غيرك فتتجور^(٢).
سأذهب بك إلى الحرباء،
حتى تشاهد بنفسك حيلتها،
فهي تلون جلدها بلون المكان،
لتعلم أن في البشر مثلها نسخ... تتكرر،
وأن هناك منافقين،
وهناك أناس بكل لباس تتدثر^(٣)،
ويدعوى الخير... تستتر.
تعود... أن تشكر،
اشكر الله،
فيكفي أنك مسلم،
ويكفي أنك تمشي... وتسمع... وتبصر،
فالله يزيد الشاكرين.
والناس تحب الشخص الذي عندما تبذل له... يُقدّر.
وفر لنفسك بديلاً لكل شيء،
استعد لأي أمر،
واستفد من كل الفرص،
لأن الفرص التي تأتي الآن،
قد لا تتكرر.

١- يتضور: يتألم ويتلوى

٢- التجور: الظلم

٣- تتدثر: تلبس وتتغطى

لا تتشكَّ ولا تتذمر،
أريدك متفائلاً..مقبلاً على الحياة،
اهرب من اليائسين والمتشائمين،
وإياك أن تجلس مع رجل يتطير.^(١)
لا تشمت ولا تفرح بمصيبة غيرك،
وإياك أن تسخر من شكل أحد،
فالمرء لم يخلق نفسه،
ففي سخريتك...أنت في الحقيقة تسخر،
من صنع الذي أبدع وخلق وصور.
لا تفضح عيوب الناس،
فيفضحك الله في دارك،
فالله الستير...يحب من يستر.
لا تظلم أحداً،
وإذا شعرت بالقسوة يوماً،
فامسح على رأس يтим،
ولسوف تدهش كيف للمسح،
أن يمسح القسوة من القلب فيتفطر^(٢).
لا تجادل...،
في الجدل...كلا الطرفين يخسر،
فإذا انهزمتنا فقد خسرتنا كبرياءنا نحن،
وإذا فزنا،
فلقد خسرتنا..الشخص الآخر..،
لقد انهزمتنا كلنا،

١- يتطير: يتشائم

٢- فيتفطر: يتصدع ويتشقق كناية عن الرأفة والرحمة

الذي انتصر.. والذي ظن أنه لم ينصر.
لا تكن أحادي الرأي،
فمن الجميل أن تؤثر وتتأثر،
لكن إياك أن تذوب في رأي الآخرين،
وإذا شعرت أن رأيك... مع الحق،
فأثبت عليه ولا تتأثر.
تستطيع أن تغير قناعات الناس،
وأن تستحوذ على قلوب الناس وهي لا تشعر،
ليس بالسحر ولا بالشعوذة،
فبابتسامتك..،
وعذوبة لفظك،
تستطيع بهما أن تسحر.
ابتسم،
فسبحان من جعل الابتسامة في ديننا عبادة،
وعليها نؤجر.
في الصين،
إن لم تبتسم لن يسمحوا لك أن تفتح متجرًا،
إن لم تجد من يبتسم لك.. ابتسم له أنت،
فإذا كان ثغرك بالبسمة يفتقر...،
بسرعة... تتفتح لك القلوب لتعبر.
وحينما يقع في قلب الناس نحوك شك،
دافع عن نفسك... وضح... برر...
لا تكن فضولياً تدس أنفك في كل أمر،
تقف مع من وقف إذا الجمهور تجمهر،
ترفع عن هذا... فانه يسوؤني هذا المنظر.
لا تحزن على ما في الحياة،

فما خلقنا فيها إلا لنمتحن،
ونبتلى.. حتى يرانا الله... هل نصبر؟
لذلك.. هون عليك.... ولا تتكدر^(١)،
وتأكد بأن الفرج قريب،
فإذا اشتد سواد السحب... فعمماً قليل ستمطر.
لا تبك على الماضي.. فيكفي أنه مضى....،
فمن العبث أن نمسك نشارة الخشب... وننشر،
أنظر للغد، استعد..... شمر،
كن عزيزاً..... وبنفسك افخر،
فكما ترى نفسك سيراك الآخرون...،
فإياك لنفسك يوماً أن تحقر،
فأنت تكبر حينما تريد أن تكبر،
وأنت فقط من يقرر أن يصغر.
ستكتشف،
إن الإنسان لو كبر،
لن ينفع معه إلا معجزة،
ما لم هو بنفسه يتغير.^(٢)

ثانياً: المكان المناسب:

"اشتري رجل دابة من دميرة^(٣) فوجد بها عيوباً كثيرة، فحضر إلى القاضي يشكو البائع فقال: أيها القاضي، إني بحُكْمِكَ راض. اشتريت من هذا الغريم^(٤) دابة، ادعى فيها الصحة والسلامة، فوجدت بها عيوباً، أعقبتني ندامة. فقال القاضي: ما عيوبها؟ فقال: كلها عيوب وذنوب، وهي أنحس مركوب، إن ركبتها رفت، وإن سقطها رقدت، وإن نزلت عنها شردت، حدباء جرباء. لا تقوم حتى تحمل على

١- تتكدر: تفضب

٢- منتديات قمة الإسلام، الشبكة العالمية

٣- اسم منطقة في مصر

٤- الغريم: الخصم

الخشب. ولا تنام حتى تكبل^(١) بالسلب،^(٢) إن قربت من الجرار كسرتها، وإن دنت من الصغار رفستهم، وإن دار حولها أهل الدار كدمتهم.^(٣) تمشي في سنة أقل من مسافة اليوم، الويل لراكبها إن وثب عليه القوم. متى حملتها لا تنهض، تقرض^(٤) جبلها، وتجفل من ظلها، ولا تعرف منزل أهلها. حرونة^(٥) ملعونة مجنونة، تقلع الوتد، وتمرض الجسد، وتفتت الكبد، ولا تركز إلى أحد. واقعة الصدر،^(٦) محلولة الظهر،^(٧) عمشاء العينين،^(٨) قصيرة الرجلين، مقلعة الأضراس، كثيرة النعاس، مشيها قليل، وجسمها نحيل، وراكبها بين الأجزاء ذليل. تجفل من الهوى، وتعرش بالنوى، تحشر صاحبها في كل ضيق، وتنقطع به في الطريق، وتعرض ركة الرفيق. فإن قبلها فأكرم جانبه ولا تحوجني أن أضاربه. فضحك القاضي وحكم بردها".

وكن مع الخلق ما كانوا الخالقهم

واحذر معاشرة الأوغاد والسفل

واخش الأذى عند إكرام اللئيم كما

تخشى الأذى إن أهنت الحر في حفل^(٩)

واستمع لابن الطفيلي يقول: "دخلت يوماً على بعض بني هاشم، فإذا أمامه لوزينج^(١٠) من النشا وبياض البيض، حشوه اللوز المقشر مع السكر والعسل الأبيض، ومندى بماء الورد، إذا أدخل الفم سمع له نشيش^(١١) كنشيش الحديد إذا أخرجته من النار وغمسته في الماء. فلم يزل يأكل ولا يطعمني. فقلت: يا سيدي إنَّ الهكِّم لو أحد". فأعطاني واحدة، فقلت: "إنا أرسلنا إليهم اثنين". فأعطاني ثانية. فقلت: "فعرزنا بثالث". فأعطاني ثالثة. فقلت: "فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك". فأعطاني رابعة. فقلت: "خمسة سادسهم كلبهم". فأعطاني خامسة. فقلت: "خلق السموات والأرض في ستة أيام". فأعطاني سادسة. فقلت: "سبع سموات طباقاً". فأعطاني سابعة. فقلت: "ثمانية أزواج.. فأعطاني ثامنة. فقلت: تسعة رهط يفسدون في الأرض". فأعطاني تاسعة. فقلت: "تلك عشرة كاملة". فأعطاني عشرة.

١- تكبل: تقيد

٢- السلب: قسبة المحراث

٣- كدمتهم: كدم- أحدث فيه أثراً وجرحه

٤- تقرض: تعض

٥- حرونة: تقف حينما يطلب منها أن تمشي وتجري حينما يطلب منها أن تقف

٦- واقعة الصدر: نازلة الصدر

٧- محلولة الظهر: رخوة الظهر

٨- عمشاء العينين: ضعيفة البصر

٩- لامية ابن المقري - لابن المقري

١٠- اللوزينج: نوع من الحلوى

١١- نشيش: صوت الماء إذا غلى

فقلت: "يا أبت إني رأيت أحدَ عشر كوكباً". فأعطاني الحادية عشرة. فقلت: "إن عدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله". فأعطاني الثانية عشرة. فقلت: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين". ففذف بالطبق إليّ وقال: كُل يا ابنَ البغيضة ! فقلت: والله لئن لم تعطني إياه لُقُلت: "وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون" (١)

"اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، لا حيث يؤخذ برجلك وتجر. غُض عينك على القذى، وإلا لم ترض أبداً. أجمل في الطلب، فسيأتيك ما قدر لك. صن عرضك، وإلا أخلقت وجهك. عاون الناس بالكف عن مساوئهم. انس رفقك، ولا تنس وعدك". (٢)

ثالثاً: الوقت المناسب:

"الربيع بن يونس وزير المنصور كان يقول: من كَلَّم الملوک في الحاجات في غير أوقات الكلام لم يظفر ببغيته (٣) وضاع كلامه، وما أشبه الحال في ذلك إلا بأوقات الصلاة لا تقبل إلا فيها. فمن أراد خطاب الملوک فليترصد الوقت المنجح الذي يصلح فيه ذكر ما أراد ليحصل النجاح وإلا فلا". (٤)

والصمت أليق بالفتى

من منطلق في غير حينه (٥)

وقال ابن حمديس:

فإذا أتيح لها الكلام تكلمت

بخير مما دائماً الهملان (٦)

"مرض أبو يوسف مرضاً شديداً، فعاده أستاذه أبو حنيفة مراراً. فلما صار إليه آخر مرة، رآه ثقيلاً، فاسترجع، (٧) ثم قال: لقد كنت أؤمله بعدي للمسلمين، ولئن أصيب الناس به ليموتنَّ علمٌ كثير. ثم رُزق أبو يوسف العافية، وخرج من العلة. (٨) فلما أُخبر بقول أبي حنيفة فيه، ارتفعت نفسه، وانصرفت وجوه الناس إليه، فعقد لنفسه مجلساً في الفقه، وقصّر عن لزوم مجلس أبي حنيفة. وسأل أبو حنيفة عنه فأخبر أنه عقد لنفسه مجلساً بعد أن بلغه كلام أستاذه فيه.

١- نثر الدر - لمنصور بن الحسين

٢- التمثيل والمحاضرة - للثعالبي

٣- بغيته: حاجته

٤- اللطف واللطائف - للثعالبي

٥- أبو العتاهية

٦- الهملان: السيلان

٧- استرجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون

٨- العلة: المرض

فدعا أبو حنيفة رجلاً وقال له: سر إلى مجلس أبي يوسف، فقل له: ما تقول في رجل دفع إلى قَصَّار^(١) ثوباً ليصبغه بدرهم، فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب، فقال له القصار: ما لك عندي شيء، وأنكره، ثم إن صاحب الثوب رجع إليه، فدفع إليه الثوب مصبوغاً، أله أجره؟ فإن قال له أبو يوسف، له أجره، فقل له: أخطأت. وإن قال: لا أجره له فقل له: أخطأت! فصار الرجل إلى أبي يوسف وسأله، فقال أبو يوسف: له الأجره. قال الرجل: أخطأت. ففكر ساعة ثم قال: لا أجره له. فقال له: أخطأت! فقام أبو يوسف من ساعته، فأتى أبا حنيفة. فقال له: ما جاء بك إلا مسألة القَصَّار. قال: أجل. فقال أبو حنيفة: سبحان الله! من قعد يُفتي الناس، وعقد مجلساً يتكلم في دين الله، لا يُحسن أن يجيب في مسألة من الإجازات؟! فقال: يا أبا حنيفة، علمني. فقال: إن صبغه القصار بعدما غصبه فلا أجره له، لأنه صبغ لنفسه، وإن كان صبغه قبل أن يغصبه، فله الأجره، لأنه صبغه لصاحبه. ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلُّم فليُبك على نفسه"^(٢).

"ليس من الحكمة أن يتعجل الإنسان إبداء الرأي؛ لأنه ربما جانب الصواب، وخالف الحقيقة، بل ربما قاده ذلك إلى أن يتعصب لرأيه ولو كان غير مصيب؛ كيلا يوصم^(٣) بالعجلة والزلل. وآراء المرء له، وأقواله عليه؛ فإذا صرح بآرائه صار أسيراً لها، مكبلاً^(٤) في أغلالها^(٥)، له غنمها^(٦)، وعليه غرمها^(٧)".

رابعاً: المقدار المناسب:

عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتكلم بكلام فصل^(٨)، لا هزر^(٩) ولا نزر^(١٠)، ويكره الثثرة في الكلام والتشدد فيه.^(١١) (متفق عليه)

وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: "كثير القول يُنسي بعضه بعضاً، وإنما لك ما أُرث عنك"^(١٢).

١- القصار: مبيض الثياب الذي يصبغها

٢- تاريخ بغداد- للخطيب البغدادي

٣- يوصم: يعاب

٤- مكبلاً: مقيداً

٥- أغلالها: قيودها

٦- الغنم: الفوز بالشيء من غير مشقة

٧- الغرم: تأدية ما وجب عليه من دين

٨- كلام فصل: كلام محكم

٩- هزر: مضحك

١٠- نزر: قليل تافه

١١- التشدد: يلوي لسانه مدعيًا الفصاحة

١٢- لائئ الحكم - للدكتورة رحاب عكاوي

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: "من كثر كلامه كثر سقطه".

"أخبرنا ابن قتيبة حدثنا جعفر بن نوح حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع قال: سمعت

مالك بن أنس يقول: كل شيء ينتفع بفضله إلا الكلام فإن فضله يضُرُّ^(١)".

"وإذا قلت فاقصد"^(٢)

"أسوأ القول الإفراط"^(٣)

قالت جارية ابن السماك له: "ما أحسن كلامك لولا أنك تكثر تكراره، وتكراره ترداده.

قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه"^(٤).

"ولا تكثر فخير الكلام القليل الحروف الكثير المعاني"^(٥)

وما كل طول في الكلام بطائل

ولا كل مقصور الكلام قصير^(٦)

وقيل: قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: "حدث القوم ما حدجوك^(٧) بأبصارهم".

"من إكرام الرجل نفسه ألا يتكلم بكل ما أحاط به علماً"^(٨)

"قيل ثمانى خصال من طباع الجهال: الغضب في غير معنى، والإعطاء في غير حق، وإنهاك الجسد

في الباطل، وقلة معرفة الرجل صديقه من عدوه، ووضعه السر في غير أهله، وثقته بمن لم يجربه، وحسن

ظنه بمن لا عقل له ولا وفاء، وكثرة الكلام بغير نفع"^(٩).

جاء في كليله ودمنة: "ذو العقل يُقلُّ الكلام، ويبالغ في العمل، ويعترف بالزلة، ويتثبت في الأمور قبل

الإقدام عليها"^(١٠)

١- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء- لأبي حاتم البستي

٢- من وصية قس بن ساعدة لابنه

٣- جمهرة الأمثال - لأبي هلال العسكري

٤- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار - للزمخشري

٥- منصور بن إسماعيل الفقيه

٦- أبو مسلم العماني

٧- الحدج: النظر بحدة

٨- أكثم بن صيفي

٩- حكمة فارسية

١٠- مصادر الحكمة في قصص كليله ودمنة- للدكتورة ليلى سعد الدين

"روى الإمام أبو الحسن - يحيى بن نجاح - في كتاب (سبل الخيرات) قال: إن عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، أرسل إلى أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - بصرة، فيها نفقه، على يدي عبد له. وقال للعبد: إن قبلها فأنت حر، فأتاه بها فلم يقبلها. فقال له العبد: اقبلها - يرحمك الله -، فإن فيها عتقي. فقال أبو ذر: إن كان فيها عتقك، ففيها رقي، وأبى أن يقبلها".^(١)

تكلم وسدد ما استطعت فإنما

كلامك حي والسكوت جماد

فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله

فصمتك من غير السداد سداد^(٢)

"خير الكلام ما قل ودل ولم يمل"^(٣) ..

خامساً: من الشخص المناسب:

"ولا يُنبئكَ مثل خبير"^(٤)

"روي أن بلالاً رأى في منامه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال، أما أن لك أن تزورني يا بلال، فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته، وقصد المدينة، فأتى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم -، فجعل يبكي عنده، ويمرغ وجهه^(٥) عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويُقبلهما، فقالا له: نشتهي أن نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله في المسجد، فعلا سطح المسجد، ووقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: الله أكبر الله أكبر، ارتجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ازدادت رجتها. فلما أن قال: أشهد أن محمداً رسول الله، خرجت العواتق^(٦) من خدورهن^(٧) وقلن: أبعث الرسول؟ قال: فما رأيت يوماً أكثر باكيةً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك اليوم".

"لا يجب أن نحكم على أقدار الرجال بمؤهلاتهم، ولكن باستعمالهم لهذه المؤهلات"

١- لباب الآداب - لابن منقذ

٢- ديوان البستي - للبستي

٣- مثل عربي

٤- فاطر: ١٤

٥- يمرغ وجهه: يقلبه

٦- العاتقة: العروس والمرأة الشابة التي في سن الزواج

٧- خدر: ستر يعد للمرأة في ناحية البيت

جمع المأمون يوماً ولده فقال: "ارجعوا فيما اشتبه عليكم من التدبير إلى رأي الحزمة (١) المجربين، والبررة المشفقين. فإنهم مرأيتكم (٢) يُرونكم ما لا ترون، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون. فقد صحبوا لكم الدهور، ومارسوا الدول، (٣) وكفوكم التجارب والعبر. وعرفوا حوادث الأزمنة وإعراضها وإقبالها وإدبارها، والعلل التي يسكن بها الهائج المضطرب، ويحتاج لها الساكن المطمئن. فروّضوا أنفسكم لهم، وتجرعوا مرارتهم. فقد قيل إن من جرّعك مرّاً لتشفى أشفق عليك ممن أوجرك (٤) حلواً لتسقم، ومن خوّفك لتأمن، أبرّ ممن أمّنك حتى تخاف (٥)"

"وانظر إلى المقام وقائل الكلام (٦)"

"فإن الكلام صفة المتكلم (٧)"

"فلا رأي لمن لا يطاع (٨)"

"وجاء عن عيسى -عليه السلام-: لا تكونوا كالمنخل، يمسك النخالة ويرسل (٩) الطحين. (١٠)"

"ومن لا يكرم نفسه لا يكرم (١١)"

"الرجل العظيم يعمل قبل أن يتكلم وبعد ذلك يتكلم حسب أعماله (١٢)"

قيل لخالد بن صفوان: مات صديق لك! فقال: "رحمة الله عليه، لقد كان يملأ العين جمالاً والأذن بياناً، ولقد كان يُرجى ولا يُخشى، ويغشى ولا يُغشى، (١٣) ويُعطي ولا يُعطى، قليلاً لدى الشر حضوره، سليماً للصديق ضميره (١٤)"

١- الحزمة: مفردها الحازم وهو الذي يضبط أموره ويحكمها ويأخذ فيها بالثقة

٢- مرأئي: جمع مرأة وتجمع على مرأيا كذلك

٣- مارس الأمر: عالجه، ومارسوا الدول تقبلوا في عدد منها وخبروها

٤- أوجره: جعله في فيه، أي أطعمه

٥- لطف التدبير في سياسات الملوك - للإسكافي

٦- أحمد بن علي بن مشرف

٧- ابن ماجد

٨- قول مشهور

٩- يرسل: يطلق ويترك

١٠- لآئى الحكم - للدكتورة رحاب عكاوي

١١- زهير بن أبي سلمى

١٢- كونفوشيوس

١٣- يغشى: يخاف

١٤- كيف تغدو فصيحاً عف اللسان - للدكتور محمد حسان الطيان

"وقال أبرويز لابنه: استكثر القليل مما تأخذ، واستقل الكثير مما تعطي؛ واعلم أن قرّة أعين الكرام في الإعطاء، وقرّة أعين اللئام في الأخذ. والملك إذا كان على رأس الكرماء فهو جدير أن يعطي ما وجد، ويمتنع من الأخذ ما استطاع.

وقال أيضا: املك الرعية بالإحسان إليها، تظفر بالمحبة منها، فإن ذلك بإحسانك أدوم منه باعتسافك، وليس الملكُ ملكَ الأبدان. واعلم أن الرعية إن استطاعت أن تقول استطاعت أن تفعل، فاجتهد أن لا تقول، تسلم من أن تفعل."

"هناك قطعة من البيان يقولها شخص فلا تقع موقعها ولا تتجاوز صوت قائلها، وهي في نفسها بديعة باهرة. ويلقي هذه القطعة شخص آخر فيوصلها إلى نفوس السامعين، فيخاطب الأغوار والأعماق ويهبط إلى القرار..^(١) والكلام هو نفسه، ولكن شتان^(٢) ما بين الخطيبين^(٣) إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستخدمه، والمال عند من لا ينفقه، ضاعت الأمور".^(٤)

"إنه ليخيل إليّ أن كلامي لو نجح^(٥) في قلبي، لنجح في قلوبكم، لكن كيف بالقائل: خذوا الذهب من الحجر، واللؤلؤ من البحر، والكلمة الطيبة ممن قالها وان لم يعمل بها".^(٦)

قال أخو بلال، مؤذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

الناس ثلاثة أثلاث: فسالم، وغانم، وشاجب

فالسالم: الساكت

والغانم: الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر "في زيادة من الله تعالى".

والشاجب: الناطق بالخنا^(٧) والمعين على الظلم^(٨)

١- القرار: المكان المنخفض يجمع فيه الماء

٢- شتان: بعد

٣- مملكة البيان- للدكتور عائض القرني

٤- حكمة فارسية

٥- نجح: أثمر

٦- يزيد بن أبان الرقاشي

٧- الخنا: الفحش

٨- صفحات مشرقة من حياة السابقين - لنذير محمد

استراحتي..

"قيل لأرسطو طاليس: ما الفلسفة؟ قال: فقر وصبر، وعفاف وكفاف، وهمة وفكرة.
قيل لسقراط: بم فضلت أهل زمانك؟ قال: لأن غرضي في الأكل الحياة، وغرضهم في
الحياة أن يأكلوا.

قيل لسقراط: ما أتعب فلاناً بخضاب^(١) لحيته؟ فقال: لخوف المطالبة بالحكمة، ولا تطلب إلا من
المشايع.

قال بقراط: أعظم آفة الحيوان الصامت - من صمته، وأعظم آفة الحيوان الناطق - من نطقه.
قيل لجالينوس: بم فقت أصحابك في علم الطب؟ فقال: لأنني أنفقت في زيت السراج لدراسة الكتب
مثل ما أنفقوا في شرب الخمر^(٢).

وإليك مثال على الكلام حينما يأتي من الشخص غير المناسب:

"دخل الحسن بن أبي المشرف على الفضل - وزير الخليفة المعتصم - فقال له الفضل: يا حسن،
نحتاج إلى رجل جزل^(٣) في رأيه، متوفر لأمانته، متصرف في الأمور بتجربته، مستقدر على الأعمال
بعلمه، تصف لنا مكانه، وتشير علينا به فنقلده جسيماً^(٤) من عملنا. فأجاب الحسن سريعاً قال: وجدته
لك، أصلحك الله. قال: من هو؟ قال: أنا. فتبسّم الفضل وقال: هذا القول من غيرك فيك أحسن منه
بلسانك لك، نعود وننظر إن شاء الله!^(٥)

سادساً: إلى الشخص المناسب:

"لا يمكن النقش في الخشب الفاسد^(٦)"

وقيل: "نترك الحب قبل أوانه في الأرض المسبخة^(٧) جهل".

وقيل: "حملك الصعب المُسن على الرياضة عناء"^(٨).

١- الخضاب: الحناء

٢- المستجاد من فعلات الأجواد- لأبي علي البصري

٣- جزل: قوي

٤- جسيماً: عظيماً

٥- رسالة ذم أخلاق الكتاب

٦- لاو تسو- صيني

٧- أرض مسبخة: أرض ذات ملح لا تثبت

٨- عناء: أصابته مشقه وتعب

وقيل: "الحديث عند من لا يرغب بسماعه، لا يحسن من ذي المروءة".

وقيل: "قال أحدهم: لا تطعم طعامك من لا يشتهيهِ. يريد: لا تقبل على من لا يقبل عليك بوجهه. ولا يدخل في ذلك كراهية الفساق والمجرمين، لحديث الداعي إلى الله؛ فالعيب ليس فيه وإنما فيهم".

قال أعرابي: "لا تبذل رفدك لمن لا يعرف حقك" (١)

وقيل: "تقدم أعرابي مع خصم له إلى بعض الولاة. فقال له الوالي: قل الحق وإلا أوجعتك ضرباً، فقال له الأعرابي: فأنت أيضاً فاعمل به، فما وعدك الله منه أعظم مما وعدتني منك".

"على اللبيب أن يجبن عن المضي على الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين". (٢)

قيل: "ما أعداء المروءة. قلت: أخبرني؟. قال: بنو عم السوء، إن رأوا حسناً سترّوه، وإن رأوا سيئاً أذاعوه. ثم قال: إن للعالم آفة وهجنة ونكداً، فأفته: نسيانه، ونكده: الكذب فيه، وهجنته: نشره عند غير أهله". (٣)

إنما الجود أن تجود على من

هو للجود والبذل منك أهل (٤)

"ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً لبيباً، ولا خائفاً وإن كان فهماً عليمًا" (٥)

"لا تطلبوا الحوائج إلى ثلاثة: إلى عبد يقول: الأمر لغيري، وإلى رجل حديث العهد بالغنى، وإلى صيرفي همه أن يسرق أو يسترجع من كل مئة دينار حبة". (٦)

"ثمانية نفر لا ينبغي لهم إذا أهينوا أن يلوموا إلا أنفسهم: الذي يأتي مائدة لا يدعى إليها، والجالس المجلس الذي ليس له بأهل، وطالب الخير من أعدائه، ومهين رب البيت في بيته، والواقع في حديث بين اثنين لم يدخله فيه، والمتعرض للفضل في أيدي اللئام، والمتحمق في الدالة (٧) على السلطان، والمقبل بحديثه على من لا يسمع منه". (٨)

١- البصائر والذخائر- أبي حيان التوحيدي

٢- حكمة فارسية

٣- عيون الأخبار- لابن قتيبة

٤- صالح بن عبد القدوس

٥- من وصية قس بن ساعدة لابنه

٦- التيمي ولعله سليمان بن طرخان

٧- الدالة: الشهرة

٨- بزرجمهر

"لقي أبو جعفر سفيان الثوري في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه^(١) وقال: أتعرفني؟ قال: لا، ولكنك قبضت علي قبضة جبار. قال: عظمي أبا عبد الله؛ قال: وهل عملت بما علمت فأعظك فيما جهلت؟ قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ قال: إن الله نهى عنكم، فقال تعالى: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار". فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحب إلى العلماء فالتقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا^(٢) فراراً.^(٣)

قيل: "تزوج أحد الصالحين امرأةً صالحاً، فقال لها: إني سيئ الخلق. فقالت له: أسوأ خلقاً منك من يلجئك^(٤) إلى سوء الخلق".

قال أحدهم: "أعياء^(٥) ما يكون الكريم، إذا سأل حاجةً لنفسه، وأعياء ما يكون الحكيم إذا خاطب سفيهاً".

استراحة

"نزل أبو الأغر - وهو شيخ أعرابي من بني نهشل - ضيفاً على بنت أخت له تسكن البصرة، وذلك في شهر رمضان. فخرج الناس إلى ضياعهم، وخرج النساء يصلين في المسجد، ولم يبق في الدار غير الإماء وأبي الأغر. ودخل كلب من الطريق إلى الدار، ثم إلى حجرة فيها، فانصفق^(٦) باب الحجرة ولم يتمكن من الخروج. وسمع الإماء الحركة في الحجرة فظننَّ لصاً دخلها، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر فأخبرته، فأخذ عصا ووقف على باب الحجرة. وقال: يا هذا إنك بي لعارف. أنت من لصوص بني مازن، وشربت نبيذاً حامضاً خبيثاً حتى إذا دارت الأقداح^(٧) في رأسك متتكَ نفسك الأماني، فقلت: أطرق^(٨) دور بني عمرو، والرجال في ضياعهم والنساء يصلين في المسجد فأسرقهن. سوء لك والله ما يفعل هذا رجلٌ حرٌّ!".

١- العاتق: ما بين المنكب والعنق

٢- أعيانا: أعجزنا

٣- العقد الفريد - لابن عبد ربه

٤- يلجئك: يجبرك

٥- أعياء: أعجز

٦- انصفق: أطبق

٧- القدح: إناء لشرب النبيذ

٨- أطرق: أضرب وأدق

وبئس ما ممتك به نفسك فاخرج بالتي هي أحسن وأنا أعفو عنك وأسامحك وإلا دخلت بالعقوبة عليك وأيم الله^(١) لتخرجن أو لأهتفن هتفةً فيجيء بنو عمرو بعدد الحصى، وتسال عليك الرجال من ها هنا، وها هنا ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني مازن. فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين فقال: اخرج بأبي أنت منصوراً مستوراً. إني والله ما أراك تعرفني، ولئن تعرفني لو ثقت بقولي، واطمأنت إلي، أنا أبو الأغر النهشلي، وأنا خال القوم وقرّة أعينهم، لا يعصون لي رأياً، وأنا كفيلاً بأن أحميكم منهم، وأن أدافع عنك فاخرج وأنت في ذمتي، وعندني فطيرتان، أهداهما إليّ ابن أختي البار، فخذ إحداهما حلالاً من الله ورسوله، بل وأعطيك بعض الدراهم، تستعين بها على قضاء حوائجك. وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق^(٢)، فإذا سكت أبو الأغر وثب الكلب وتحرك، يريد الخروج. فلما لم يسمع أبو الأغر رداً قال: يا ألام الناس! أراني في وادٍ وأنت في آخر. والله لتخرجن أو لأدخلن عليك. فلما طال وقوفه جاءت جارية وقالت لأبي الأغر: أعرابي جبان! والله لأدخلن أنا عليه! ودفعت الباب، فوقع أبو الأغر على الأرض من فرط^(٣) خوفه، وخرج الكلب مبادراً فهرب من الدار. واجتمعت الجوارى حول أبي الأغر فقلن له: قم ويحك^(٤) فإنه كلب! فقام وهو يقول: الحمد لله الذي مسخه^(٥) كلباً وكفى العرب شرّ القتال! "^(٦)

"إذا لطمت حجراً، فإن يدك هي التي تتألم"^(٧)

قال علي بن أبي طالب: "لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوا أهلها فتظلموهم"^(٨)

"دخل رجل على كسرى أبرويز، فشكا إليه عاملاً غصبه على ضيعة له، فقال له كسرى: منذ كم وهي في يدك؟ قال: منذ أربعين سنة، قال: فأنت تأكلها أربعين سنة، ما عليك أن يأكل عاملي منها سنة واحدة!! فقال: وما كان على الملك أن يأكل (بهرام جور) المملك سنة واحدة؟

فقال: ادفعوا في قفاه^(٩) فأخرجوه، فلما خرج أمكنته التفاتة، فقال: دخلت بمظلمة وخرجت باثنتين. فقال كسرى: ردوه، وأمر برد ضيعة، وصيره في خاصته^(١٠)."

١- وأيم الله: كلمة قسم

٢- أطرق: صمت

٣- فرط: تجاوز الحد

٤- ويحك: ويلك

٥- مسخه: حول صورته إلى أبيض

٦- عيون الأخبار - لابن قتيبة

٧- مثل هندي

٨- الحكمة عبر العصور - لمجيد طراد

٩- قفاه: الخلف ومؤخر العنق

١٠- المحاسن والأضداد - للجاحظ

استراحة

"نظر أعرابي في سبع وعشرين من رمضان إلى الهلال فقال: الحمد لله الذي أنحل جسمك كما أخمصت بطني".^(١)

سابعاً: تعبير الوجه المناسب:

كالفرح، والحزن، والحماس، والهدوء، والغضب، والجدية... الخ

"ما تريد نيله بالقوة يسهل عليك بالبسمة"^(٢) والبسمة كلمة.

قال أحدهم: "حسن البشر اكتساب محمداً ودفع ضغينة"^(٣) بغير مؤونة".

"إن عينك ليست سوى انعكاسٍ لأفكارك"^(٤)

وقال آخر: "البشرُ يطفئ نار العداوة".

"وحدثنا أبو عبد الله قال أخبرني أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي عن أبي معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: يا بني، لتكن كلمتك طيبة، ووجهك بسطاً، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء"^(٥).

"الوجه الحسن أقوى خطاب تَوْصِيَة"^(٦).

قال صاحب مؤيد الدولة:

"الليب تكفيه اللمحة وتغنيه اللحظة عن اللفظة"^(٧)

ثامناً: الهيئة المناسبة:

كالوقفة المناسبة، الجلسة المناسبة... الخ

١- البصائر والذخائر- لأبي حيان التوحيدي

٢- مثل إنجليزي

٣- ضغينه: الحقد الشديد

٤- د. أبراهيم الفقي

٥- الأمالي- لأبي علي القالي

٦- مثل فرنسي

٧- نكت الوزراء- للجارجي

"كان مالك بن أنس إذا أراد أن يتحدث توضأً، وسرَّحَ لحيته،^(١) وجلس في صدر مجلسه بوقار وهيبة، تعظيماً لحديث رسول الله. ودخل إليه ليلة بعد ما أوى فراشه قريبه إسماعيل بن أبي أويس ليحدثه، فقام وتوضأً وفعل نحو ذلك وحدثه، ثم نزع ثيابه وعاد إلى فراشه".^(٢)

"وَزَيْنُ حَدِيثِكَ بِالْوَقَارِ وَحَسَنِ السَّمْتِ"^(٣)

وكما قيل: "اقرأ المكتوب من عنوانه"^(٤)

تاسعاً: المظهر الخارجي المناسب:

كاللباس المناسب، والنظافة، والرائحة الطيبة،..... الخ

وجاء في سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه كانت لديه جبة خاصة يرتديها عند استقباله للوفود.

قال أحدُ الفلاسفة: "يُستقبل الإنسان بثيابه، ويُودَّع بكلامه".

"من نظف ثوبه قل همُّه، ومن طاب ريحه زاد عقله"^(٥)

"الثياب الممزقة لا تنسجم والأزرار الذهبية"^(٦)

"أتى أبو وائلة -إياس بن معاوية المزني- حلقةً من حلق قريش في مسجد دمشق، فاستولى على المجلس؛ ورأوه أحمرّاً ذميماً باذ^(٧) الهيئة قشفاً،^(٨) فاستهانوا به، فلماً عرفوه اعتذروا إليه، وقالوا له: الذنب مقسوم بيننا وبينك؛ أتيتنا في زي مساكين، تكلمنا بكلام الملوك".^(٩)

وقيل: "لا ينبغي للخطيب أن يبالغ في ارتداء أنفُس الثياب، بدعوة الوجاهة والوقار، لما يترتب على ذلك من حصول فجوة في الغالب بينه وبين الجماهير، خاصة إذا كانوا من أوساط الناس، وخير الأمور: الوسط، وأفضل الهدى: هدى محمد - صلى الله عليه وسلم -".^(١٠)

وقيل أيضاً: "لسان الحال يغني عن المقال"^(١١)

-
- ١- سرَّحَ لحيته: خلَّصَ بعضه من بعض بالمشط
 - ٢- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار - للزمخشري
 - ٣- أطواق الذهب في المواعظ والخطب ٦٨ - للزمخشري
 - ٤- قول مشهور
 - ٥- مكحول بن ابي مسلم
 - ٦- سعدي الشيرازي
 - ٧- باذ: سيئ ورث
 - ٨- قشفاً: رث الهيئة
 - ٩- البيان والتبيين - للجاحظ
 - ١٠- طريقك إلى الخطابة والإلقاء - انترنت
 - ١١- قول مشهور

عاشراً: الإشارات المناسبة:

كحركة الأيدي والأرجل والرأس والعينين... الخ

"ذلك أن المبصرين حين يتبادلون الحوار بينهم عند التقائهم عادة تحمل وجوههم ما يشبه إشارات المرور. أعني بذلك: تلك العلامات التي يعطي بعضها رسالة مرئية واضحة أن صاحبها مستعد لاستقبال المزيد من الحديث، في حين يعطي بعضها الآخر ضوءاً أحمر يوجب توقف المتحدث إن كان يتمتع بذلكاء اجتماعي يمنعه من أن يواصل حديثه".^(١)

إن خير الكلام ما ليس فيه

عند من يفهم الكلام كلام^(٢)

"وَلَرُبَّ إِشَارَةٍ أبلغ من عبارة"^(٣)

وأقول: العين نافذة القلب، فما كان في القلب ظهر في العين .

"عن أبي حاتم عن الأصمعي عن يونس بن مُصعب عن عثمان بن إبراهيم بن محمد قال: إني لأعرف في العين إذا عرفت، وأعرف فيها إذا أنكرت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تُنكر، أما إذا عرفت فتخوَصَّ،^(٤) وأما إذا أنكرت فتجَحَّظ،^(٥) وأما إذا لم تعرف ولم تُنكر فتَسْجُو.^(٦)"^(٧)

حادي عشر: المشاعر الداخلية المناسبة:

كالحب، والكراهة، والحسد، والحقد، والغيرة... الخ

"إذا خرج الكلام من القلب وَقَعَ في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذان"^(٨).

وكان علي بن أبي طالب يقول: "غش القلوب يظهر على صفحات الوجوه، وفتلت الألسن"

تكلم من قلبك السليم

"فالكلام الذي يخرج من القلب يدخل في القلب"^(٩)

١- ناصر نوراني- الحوار الغائب- جريدة الخليج الإماراتية العدد ٩٦٩٧ الثلاثاء تاريخ ٤ ذي القعدة ٥- ٦ ديسمبر ٢٠٠٥م

٢- أحمد بن طيفور

٣- مثل عربي

٤- تخوَصَّ: ضاقت عينه

٥- تجَحَّظ: نتأت وبرزت

٦- تسجُو: تسكن

٧- العقد الفريد - لابن عبد ربه الأندلسي

٨- عيون الأخبار- لابن قتيبة الدينوري

٩- قول مشهور

"الجسم مطيع للفكر والفكر مطيع للقلب"

الفاسدون يقولون: هناك عدو وعدو محتمل ولا يوجد صديق، والطيبون يقولون: هناك صديق وصديق محتمل ولا يوجد عدو.

القلب وعاء مملوء بالحب والسلام والوفاء والإخلاص والخير والطاقة العالية لعمل أي شيء... مملوء بكل المشاعر الطيبة، ولكن إذا دخلت فيه المشاعر الفاسدة (الكره أو الحقد أو الخوف... وكل المشاعر الفاسدة) عملت به ثقوباً تستنزف المشاعر والطاقات الموجودة فيه وكلما زادت المشاعر السيئة زاد عدد الثقوب وحجمها.

تُقدر دراسات علمية بأن القلب ينبض أكثر من ٣,٥ بليون مرة بالعمر بمعدل يزيد عن ١٠٠.٠٠٠ مرة في اليوم الواحد، ويضخ ما يزيد عن ٧٥٠٠ لتر في اليوم، ويكمل دورته في الجسم بما يقارب ٣٠ ثانية، ويسير في الدقيقة الواحدة ما مسافته ٢٥٠,٠٠٠ ميل، أي ما يزيد عن ١٠ أضعاف محيط الأرض عند خط الاستواء! المجال الكهربائي للقلب أقوى من المجال الكهربائي للدماغ من ٤٠-٦٠ مرة والمجال المغناطيسي للقلب يصل إلى ٥٠٠٠ مرة أكثر من المجال المغناطيسي للدماغ، ومن هنا تأتي الشخصية الكارزمية! يمكن أن يؤثر المجال الكهربائي لشخص في المجال الكهربائي لشخص آخر.

أهميه القلب السليم الخالي من العواطف السلبية حسب دراسة علمية هي:

١. يقوم جهاز المناعة بوظيفته بشكل أفضل.
٢. التخلص من الكميات السامة في الدم.
٣. يقوم الجهاز الهضمي بوظيفته بشكل أفضل.
٤. يقلل من سرعة هرم الجسم.
٥. يزيد من معدل اليقظة.
٦. زيادة سرعة الشفاء من الأمراض.
٧. انسجام داخلي عالي "طمأنينة القلب وانسراح الصدر وراحة البال".
٨. كلام صادق مؤثر.

يقول د. عائض القرني: "لماذا لا يكون الخطيب مشبوب (١) العاطفة، عارم (٢) الفطنة، (٣) جياش (٤) الخاطر، ملهب (٥) الإحساس، متقد (٦) الضمير، لمامح (٧) الإشارة، خاطفاً للأضواء، حي البديهة، (٨) هادر الصوت، ساحر الأداء، حلو الإيراد، (٩) قوي البرهان، غزير المادة؟" (١٠)

وما أحسن قول العامة: "القلوب عند بعضها" (١١)

"وهذا أمر تستخبر به النفوس المهدّبة، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة، وإنما الكلام أصوات، محلها من الأسماع محلّ النواظر من الأبصار. وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحُسن، وتستوفي أوصاف الكمال، وتذهب في الأنفس كل مذهب، وتقف من التّمّام بكل طريق، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتّمام الخِلقَة، وتناصّف الأجزاء، وتقابل الأقسام؛ وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلّقُ بالنّفس، وأسرع مِمّا جَءَ للقلب؛ ثم لا تعلم - وإن قاسيت واعتبرت، ونظرت وفكرت - لهذه المزية (١٢) سبباً، ولما خصت به مُقتَضياً. ولو قيل لك: كيف صارت هذه الصورة، وهي مقصورة عن الأولى في الإحكام والصنعة، وفي التّرتيب والصيغة، وفيما يجمع أوصاف الكمال، وينتظم أسباب الاختيار، أحلى وأرشق وأحظى وأوقع؟ لأقمت السائل مقام المتعنّت (١٣) المتجانف، (١٤) ورددته ردّ المستبهم (١٥) الجاهل! ولكان أقصى ما في وسعك، وغاية ما عندك أن تقول: موقعه في القلب أطف،

-
- ١- مشبوب: متوهج وحسن
 - ٢- عارم: شديد
 - ٣- فطنة: حذق ومهارة
 - ٤- جياش: متدفق
 - ٥- ملهب: متقد
 - ٦- متقد: يقظ
 - ٧- لمامح: ذكي
 - ٨- البديهة: الرأي السديد
 - ٩- الإيراد: الإخبار والذكر
 - ١٠- مملكة البيان - للدكتور عائض القرني
 - ١١- قول مشهور
 - ١٢- المزية: الفضيلة
 - ١٣- المتعنّت: المشدد
 - ١٤- متجانف: متجانب
 - ١٥- مستبهم: أشكل، غير الفاهم

وهو بالطبع أليق؛ ولم تعدم مع هذه الحال معارضاً يقول لك: فما عبتَ من هذه الأخرى؟ وأي وجه عدل بك عنها؟ ألم يجتمع لها كيت وكيت^(١)!! وتتكامل فيها ذيه وذيه^(٢)!! وهل للطاعن إليها طريق! وهل فيها لغامز مغمز يحتاجك بظاهر تحسسه النواظر! وأنت تحيله على باطن تحصّله الضمائر!

كذلك الكلام: منشوره ومنظومه، ومجمّله ومفصّله؛ تجد منه المحكم الوثيق والجزل القوي، والمصنّع المحكم، والمنمّق الموشح؛ قد هُذّب كل التهذيب، وثُقّف^(٣) غاية التثقيف، وجهد فيه الفكر، وأتعب لأجله خاطر، حتى احتمى ببراءته عن المعائب، واحتجر بصحّته عن المطاعن، ثم تجد لفؤادك عنه نبوة^(٤)؛ وترى بينه وبين ضميرك فجوة^(٥).

قيل: "لا عذر مع إصرار، ولا ظفر مع بغي^(٦)، ولا صحة مع نهم^(٧)، ولا صداقة مع خب^(٨)، ولا راحة مع حرص، ولا عز مع كبر، ولا رئاسة مع حقد".

"وقال الشيخ ابن سعدي: واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع الطبقات، وازدرائه، والاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارة أو تصريحاً، أو تعريضاً^(٩)؛ فإن فيه ثلاثة محاذير: أحدها: التحريم، والإثم على فاعل ذلك.

ثانيها: دلالته على حمق^(١٠) صاحبه، وسفاهة^(١١) عقله، وجهله.

ثالثها: أنه باب من أبواب إثارة الشر، والضرر على نفسه.

وقيل (في قلة المراعاة لمشاعر الآخرين): من الناس من هو غليظ الطبع، كثيف^(١٢) النفس، لا يراعى مشاعر الآخرين، ولا يأنف^(١٣) من مواجعتهم بما يكرهون، فتارة^(١٤) يُذكر الحاضرين بعيوبه، وتارة يؤذيهم بلحن منطقة، وتارة يذكرهم بأمور يسوؤهم تذكرها.

١ كيت وكيت: كذا وكذا

٢ ذيه وذيه: هذه وهذه

٣ ثقّف: تقويمه

٤ نبوة: فجوه وبعد

٥ الوساطة بين المتبني وخصومه - لأبي حسن الجرجاني

٦ بغي: ظلم

٧ نهم: شراهه

٨ خب: مخادع

٩ تعريضاً: تصدى له وصار هدفاً له

١٠ حمق: قليل العقل

١١ سفاهة: طيش

١٢ كثيف: غليظ وثخين

١٣ يأنف: يستنكف

١٤ تارة: مرة

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل الغبي العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها. بل إن تكلم، فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به؛ فهو يحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا^(١) العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.... ولهذا فالرجل النبيل، ذو المروءة والأدب: هو من يراعي مشاعر الآخرين، فلا يؤذيهم بكلمة، ولا يجرح مشاعرهم بإشارة أو نحوها."

ثاني عشر: الصوت المناسب:

عال، منخفض، قوي، ضعيف، ناعم، خشن، سريع، بطيء... الخ.

"إن الخطيب الملهم الفصيح يجد الناس في صوته وأدائه وعرضه متعة لا يجدونها في مشاهدة الحدائق الغناء^(٢) أو سماع خريير الجداول وهمس النسيم وهديل الحمام"^(٣).

وقيل: رفع الصوت من غير حاجة إلى ذلك ينافي أصول الكلام، قال تعالى: "واغضض من صوتك"^(٤) إن أنكر الأصوات^(٥) لصوت الحمير" فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة لما اختص الحمار بذلك، الذي علمت خسته وبلادته.

أسعد الله السعيد لديهم

كل عذب الكلام حلو المذاق^(٦)

ثالث عشر: الحال المناسب:

تهنئة، أو عزاء، أو تفكير، أو مرح، أو مشورة، أو جد، أو هزل... الخ

قال وزير المتوكل -عبدالله بن يحيى-:

"لسان الحال أنطق من لسان المقال"^(٧)

١- الرحا: الحجر الذي يستخدم للطحن

٢- غناء: كثيفة الأشجار

٣- مملكة البيان - للدكتور عائض القرني

٤- وأغضض من صوتك: أدباً مع الناس، ومع الله

٥- أنكر الأصوات: أفضعها وأبشعها

٦- الأخرس

٧- نكت الوزراء- للجاجرجي

"حكم قاضي في مصر بإفلاس رجل كثر ديونه، فأركبه حماراً وطوّف به في البلد ليحترز الناس من معاملته بعد ذلك. فلما أنزل عن الحمار قال له صاحب الحمار: أين أجره الحمار؟ فقال له: يا أبله، فقيم كُنّا طول النهار؟! "^(١)

وقيل في المتكلم السيئ: "إنه يتكلم بالهزل في مواقف الجد، ويحاول إضحاك السامعين في مجلس يسوده الحزن.. ومن الناس من يخاطب الأذكياء بخطاب لا يناسب إلا قاصري العقول، وربما خاطب محدود الذكاء بكلام لا تدركه أفهامهم، ومن هنا يفقد الكلام قيمته، ويصبح ضرباً من الهذيان، بل ربما عرض صاحبه للمز^(٢) الناس وعبههم إياه .

ولئن كان مراعاة مقتضى الأحوال شيئاً حسناً مطلوباً من كل أحد - فهو من الخطيب - حال الخطابة - أولى وأحرى، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به؛ فالأغنياء يرضي كبرياءهم^(٣) نزع^(٤) من الكلام يقتضيه مقام الخطبة، والعلماء يجتذبهم الثناء الحسن، وأن يكون الكلام الذي يلقي عليهم أقرب إلى العمق والسلامة؛ ليسترعي انتباههم. ثم إن الجماعة الثائرة تخاطب بعبارات هادئة، والجماعة الخنسة^(٥) تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة، والجماعة التي شطت وركبت رأسها تخاطب بعبارات فيها قوة العزم، ونور الحق، وفيها إرعادة المنذر، ويقظة المنقذ، وفيها روح الرحمة. لذلك وجب على الخطيب أن يكون قادراً على إدراك حال الجماعة، وما تقتضيه تلك الحال، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمها؛ ليصل إلي مواضع التأثير فيها "

وقيل أن أبا الحسن - علي بن عيسى - قال في بيت عزاء:

"مصيبة وجب أجرها خير من نعمة لا يؤدي شكرها "^(٦)

وجاء في (كليلة ودمنة): "والعاقل يصانع عدوه إذا اضطر إليه، فيظهر له وده ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدءاً، ويعجل الانصراف عنه إذا وجد لذلك سبيلاً "^(٧)

رابع عشر: الطريقة المناسبة:

"لا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي "^(٨).

١- الكشكول- لبهاء الدين العاملي

٢- لمز: أشار بعينه مستهزئاً

٣- كبرياءهم: عظمتهم وترفعهم

٤- نزع: صنف

٥- الخنسة: المتوارية

٦- الوزراء- للصابي

٧- مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة- للدكتورة ليلي سعد الدين

٨- أرسطو

ومن ذلك التمهّل في الكلام وبيانه حتى يفهم المستمع المراد من الحديث، ويعقل مقصوده ومغزاه. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسرد الحديث كسر دكم هذا، يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه^(١).

"عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم -، كان إذا تكلم بكلمه أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً".^(٢) (رواه البخاري) وعن عائشة أيضاً قالت: كان كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلاماً فصلاً^(٣) يفهمه كل من سمعه.^(٤)

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يحدث حديثاً إلا تبسم^(٥).

وأقول:

ليس مهماً ماذا تقول وإنما كيف تقول.

(تعال هنا) تقولها بصوت عالٍ لصغير فيخاف ويبكي بصوت حزين.

(تعال هنا) تقولها بصوت حنون لصغير فيبتسم ويركض إليك بسرور.

قد تكون الكلمات لطيفة جميلة، لكن الصوت غير لطيف.

سواء تعلم أو لا تعلم.

سواء تعني أو لا تعني.

رجاء... حسن صوتك يا حبيب.

وإني بمنثور الكلام لعالم

ولكن الدر في أن يُنظَمَ^(٦)

قيل: "إدراك الحاجة يكون بلين المقال، ولطف السؤال، وحسن الأناة، وقلة الاستكراه"^(٧)

١- متفق عليه

٢- رياض الصالحين - للإمام النووي

٣- فصل: محكم

٤- رواه أبو داود

٥- رواه أحمد

٦- صرد بن صريع

٧- الاستكراه: قهره عليه

قيل للعتابي: "ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجة دون إعادة ولا حبة ولا استعانة فهو بليغ، قيل له: وما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا حدثت قال: يا هناء، واسمع إلي، وافهم، وألست تفهم؟ هذا كله عي وفساد"^(١).

"إن الطيش في الكلام يترجم عن خفة الأحلام، وما دخل الرفق شيئاً إلا زانه، وما زان المتكلم إلا الرزانة"^(٢). (٣)

"من يتحدث بلا تواضع، فسيجد من الصعب عليه جعل كلماته حسنة الوقع"^(٤)

قال ابن عقيل: "كان شيخنا أبو القاسم بن برهان الأسدي يقول لأصحابه: إياكم والنحو بين العامة فإنه كاللحن بين الخاصة"^(٥).

قال صاحب مؤيد الدولة:

"الكلام إذا تكرر في السمع تقرر في القلب"^(٦)

"قيل إنه بعد أن عاد الطالب الملتزم -سابقاً- من دراسته في إحدى الدول الشيوعية فوجئ أهله بتركه للصلاة، فسأله أبواه عن السبب، فأجابهما بصوت قوي: لن أصلي حتى تحضرا لي أكبر شيخ يجيب عن أسئلتى الثلاثة؟ أحضر والده شيخاً من الشيوخ الكبار، وبعدها قال له الشيخ لماذا لا تصلي؟ فأجابه لن أصلي إلا إذا أجبت عن أسئلتى الثلاثة:

* السؤال الأول: ما القضاء والقدر؟

* السؤال الثاني: كيف للجن أن يتعذبوا في النار وهم مخلوقون من النار؟

* السؤال الثالث: كيف نعبد الله ونحن لا نراه؟

وبعد أن انتهى من أسئلته الثلاثة، قام الشيخ وصفعه على وجهه بقوة، فقال له الشاب: لماذا صفعتني؟، قال الشيخ: هذه الصفعة تجيب عن أسئلتك الثلاثة!.

* فجواب السؤال الأول:

هل كنت تعلم أنني سوف أصفعك على وجهك؟ فأجاب الشاب: لا لم أكن أعلم، فقال له الشيخ هذا هو القضاء والقدر.

١- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار- للزمخشري

٢- الرزانة: الوقار

٣- أطواق الذهب في المواعظ والخطب - للزمخشري

٤- تشو تشويهمو

٥- أخبار الحمقى والمغفلين - لابن الجوزي

٦- نكت الوزراء- للجاجرجي

* وجواب السؤال الثاني:

هل تألمت من أثر الصفعة التي صفعتك إياها؟ قال الشاب: نعم، فقال الشيخ هكذا يتعذب الجن في النار مثلما أنت تألمت بالصفعة وأنا وأنت مخلوقان من طين.

* وجواب السؤال الثالث:

هل أنت ترى الألم الذي تشعر به داخل جسمك؟ قال الشاب: لا أراه، قال الشيخ: هكذا نعبد الله دون أن نراه. وبعد أن أجابه الشيخ على أسئلته، قام الشاب يبكي، ثم تعوذ من الشيطان وقام لأداء الصلوات الخمس من بعدها.

"وروي أن أبا دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي أمير المؤمنين أبو العباس في أحد الأيام، فقال: سلني حاجتك؟

فقال له أبو دلامة: أريد كلب صيد.

فقال: أعطوه إياه.

فقال: ودابة أتصيد عليها.

فقال: أعطوه دابة.

فقال: وغلاماً يقود الكلب والصيد.

فقال: أعطوه غلاماً.

فقال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه.

فقال: أعطوه جارية.

فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنوها.

فقال: أعطوه داراً تجمعهم.

ثم قال: وإن تكن لهم الدار فمن أين يعيشون؟

قال: قد أقطعتك عشر ضياع^(١) عامرة وعشر غامرة من فيافي^(٢) بني إسرائيل.

قال: وما معنى الغامرة يا أمير المؤمنين؟

قال: ما لا نبات فيها!.

١- الضيعة: الأرض

٢- فيافي: صحاري

قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني سعد!

فضحك منه وقال: أعطوه كلها عامرة.

قال الحافظ: فانظر في حذقه بالمسألة، ولطفه فيها، كيف ابتداءً بكلب صيد فسَّهل القضية، وجعل يأتي بمسألة مسألة على ترتيب وفكاهة، حتى نال ما سأله، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليها، بارك الله فيه، انتهى" (١).

وقال أرسطوطاليس (الحكيم) لصديق له -وقد رآه ظالماً-: هبنا^(٢) نقدر على محاباتك^(٣) في أن لا نقول إنك ظالم، هل تقدر أنت على أن لا تعلم أنك ظالم؟! وقليل الحق أجدى^(٤) عليك من كثير الظلم^(٥)

خامس عشر: الآداب المناسبة:

"والظرفاء لا يتشاءبون، ولا يتمطون، ولا يوقعون^(٦) أكفهم، ولا يشبكون أصابعهم، ولا يمدون أرجلهم، ولا يحكون أجسادهم"^(٧)

"وقال الإمام الغزالي^(٨): إن أردت حُسن العشرة، فتلق صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير ذلة لهم، ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة.. وكن في جميع أمورك أوسطها، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم، ولا تنظر في عطفك،^(٩) ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز،^(١٠) وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك،^(١١) وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقتك، وتنخمك،^(١٢) وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطي^(١٣) والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادياً،^(١٤) وحديثك منظوماً مرتباً،

١- إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس - للأتليدي

٢- هبنا: افترض

٣- محاباتك: الميل لك

٤- أجدى: أنفع

٥- لباب الآداب - لابن منقذ

٦- بوقعون: يسقطون

٧- الموشى - للوشاء

٨- آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق - للإمام الغزالي

٩- العطفين: الجانبين

١٠- جلس مستفزاً: أي غير مطمئن

١١- تخليل أسنانك: إخراج ما بقي من المأكول بينها

١٢- التنخم: ما يلفظه الإنسان من البلغم

١٣- التمطي: مد اليدين

١٤- هادياً: ساكناً وقوراً

وأصغ إلى الكلام الحسن، ممن يحدثك، من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك من الحكايات، ولا تتحدث عن إعجابك بولدك أو جاريتك، أو شعرك أو تصنيفك،^(١) وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل^(٢) العبد، وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تُعلم أهلك وولدك، -فضلاً عن غيرهم-، مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عليهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ فيه رضاهم، وخوفهم في غير عنف، ولن لهم من غير ضعف، ولا تُهازل أمتك، ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تُكثر الإشارة بيديك، ولا تُكثر الالتفات إلى من وراءك، ولا تجث^(٣) على ركبتك، وإذا ذهب غيظك فتكلم، وإن قريك سلطان، فكن منه على مثل حد السنان،^(٤) فإن استرسل إليك، فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهي ما لم يكن معصية، ولا يحملنه لطفه بك، أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه،^(٥) وإن كنت لذلك مستحقاً عنده، فإن سقطه الداخل بين الملك وأهله، سقطه لا تنعش،^(٦) وزلة لا تقال،^(٧) وإياك وصديق العافية، فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه: البداية بالتسليم، وترك التخطي لمن سبق، والجلوس حيث اتسع، وحيث يكون أقرب التواضع، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه غض البصر، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف،^(٨) وعون الضعيف، وإرشاد الضال،^(٩) ورد السلام، وإعطاء السائل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والارتياذ^(١٠) لموضع البصاق، ولا تبصق في جهة القبلة، ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك، أو تحت قدمك اليسرى.

١- تصنيفك: تأليفك

٢- التبذل: لبس الثياب الخلق مترك التزين

٣- تجث: تجلس

٤- السنان: الرمح

٥- الحشم: الأهل والقراية والعيبد

٦- أنعشه: أنهضه وقوى جأشه

٧- تقال: تصفح

٨- الملهوف: المظلوم المضطر يستغيث ويتحسر

٩- الضال: الضائع

١٠- الارتياذ: الذهاب

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت: فأدبه ترك الغيبة، ومجانبة^(١) الكذب، وصيانة^(٢) السر، وقلة طلب الحوائج، وتهذيب الألفاظ، والإعراب في الخطاب، والمذاكرة بأخلاق الملوك، وقلة المداعبة، وكثرة الحذر منهم- وإن ظهرت لك المودة- ولا تتجشأ^(٣) بحضرتهم، ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر، والقده^(٤) في الملك، والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت، فأدبه: ترك الخوض^(٥) في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم^(٦) والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم.

وإياك أن تمازح لبيباً، أو غير لبيب، فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يجترئ عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة، ويسقط المنزلة، ويذهب ماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الود، ويشين^(٧) فقه الفقيه، ويجرئ السفيه، ويسقط المنزلة عند الحكيم، ويمقت المتقون، ويميت القلب، ويباعد عن الرب -تعالى-، ويكسب الغفلة، ويورث الذلة، وبه تظلم السرائر^(٨) وتموت الخواطر، وبه تكثر العيوب، وتبين الذنوب.

وقد قيل: لا يكون المزاح إلا من سخف، أو بطر.

ومن بُلي في مجلس بمزاح، أو لغط، فليذكر الله عند قيامه.

قال -عليه السلام-: "من جلس في مجلس، فكثرت فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك"^(٩)

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- لجليسي علي ثلاث: أن أرميه بطرفي^(١٠) إذا أقبل، وأن أوسع له إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث^(١١)

"وللعاقل سياسة حكيمة، وأسلوب رقيق في معاملة العدو والصديق، فهو يصادق عدوه إذا رجا نفعه، ويعادي صديقه إذا خاف ضره"^(١٢)

١- مجانبة: الابتعاد

٢- صيانة: حفظ

٣- تجشأ: خروج صوت عند امتلاء المعدة

٤- قدح: عاب

٥- الخوض: التفاوض

٦- الأراجيف: كذب وفتن

٧- يشين: يشوه ويعيب

٨- السرائر: ما يكتتم ويسر

٩- رواه الترمذي ٤٩٥/٥

١٠- طرفي: عيني، النظر إليه

١١- عيون الأخبار- لابن قتيبة

١٢- مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة- للدكتورة ليلى سعد الدين

سادس عشر: الغاية المناسبة:

قال فيلسوف: لا تغتر بحسن الكلام إذا كان الغرض الذي يقصد به ضاراً، فإن الذين يسمون الناس إنما يقدمونه في ألد طعام، ولا تستجف الكلام الغليظ إذا كان الغرض سليماً نافعاً، فإن أكثر الأدوية الجالبة للصحة بشعة" (١)

قال سيد قطب - رحمه الله -:

عندما نعيش لذواتنا فحسب،

تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة،

تبدأ من حيث بدأنا نعي،

وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود!

أما عندما نعيش لغيرنا،

أي عندما نعيش لفكرة،

فإن الحياة تبدو طويلة عميقة،

تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض،

إننا نربح أضعاف عمرنا في هذه الحالة،

نربحها حقيقة لا وهماً،

فتصور الحياة على هذا النحو،

يضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتها.

وليست الحياة بعد السنين، ولكنها بعدد المشاعر.

وما يسميه "الواقعيون" في هذه الحالة "وهماً"

هو في الواقع "حقيقة" أصح من كل حقائقهم!

لأن الحياة ليست شيئاً آخر غير شعور الإنسان بالحياة.

جرد أي إنسان من الشعور بحياته - تجرده من الحياة ذاتها في معناها الحقيقي!

ومتى أحس الإنسان شعوراً مضاعفاً بحياته، فقد عاش حياة مضاعفة فعلاً..

يبدو لي أن المسألة من البداهة بحيث لا تحتاج إلى جدال!

١- البصائر والذخائر - لأبي حيان التوحيدي

إننا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة،
حينما نعيش للآخرين .
وبقدر ما نضاعف إحساسنا بالآخرين،
نضاعف إحساسنا بحياتنا،
ونضاعف هذه الحياة ذاتها في النهاية !
بذرة الشر تهيج،
ولكن بذرة الخير تثمر،
إن الأولى ترتفع في الفضاء سريعاً،
ولكن جذورها في التربة قريبة،
حتى لتحجب عن شجرة الخير النور والهواء،
ولكن شجرة الخير تظل في نموها البطيء،
لأن عمق جذورها في التربة يعوضها عن الدفء والهواء ..
مع أننا حينما نتجاوز المظهر المزور البراق لشجرة الشر،
ونفحص عن قوتها الحقيقية وصلابتها،
تبدو لنا واهنة هشة نافثة في غير صلابة حقيقية !
على حين تصبر شجرة الخير على البلاء،
وتتماسك للعاصفة،
وتظل في نموها الهادئ البطيء،
لا تحفل بما ترجمها به شجرة الشر من أقداء وأشواك .
عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس،
نجد أن هناك خيراً كثيراً قد لا تراه العيون لأول وهلة ،
لقد جربت ذلك،
جربته مع الكثيرين ..
حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شريريون أو فقراء الشعور ..

شيء من العطف على أخطائهم،
وحماقاتهم،
شيء من الود الحقيقي لهم،
شيء من العناية-غير المتصنعة- باهتماماتهم وهمومهم،
ثم ينكشف لك النبع الخير في نفوسهم،
حين يمنحوك حبههم ومودتهم وثقتهم،
في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك،
متى أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص،
إن الشر ليس عميقاً في النفس الإنسانية إلى الحد الذي نتصوره أحياناً.
إنه في تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء،
فإذا أمنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية،
هذه الثمرة الحلوة،
إنما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناس بالأمن من جانبه،
بالثقة في مودته،
بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم،
وعلى أخطائهم أو على حماقاتهم كذلك،
وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله،
أقرب مما يتوقع الكثيرون،
لقد جربت ذلك،
جربته بنفسني،
فلست أطلقها مجرد كلمات مجنحة وليدة أحلام وأوهام!
عندما تنمو في نفوسنا بذور الحب والعطف والخير،
نعفي أنفسنا من أعباء ومشقات كثيرة،
إننا لن نكون في حاجة إلى أن نتملق الآخرين؛

لأننا سنكون يومئذٍ صادقين مخلصين إذ نرجي إليهم الثناء،
إننا سنكشف في نفوسهم عن كنوز من الخير،
وسنجد لهم مزايا طيبة نثني عليها حين نثني ونحن صادقون،
ولن يعدم إنسان ناحية خيرة، أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة..
ولكننا لا نتطلع إليها، ولا نراها إلا حينما تنمو في نفوسنا بذرة الحب!
كذلك لن نكون في حاجة إلى أن نحمل أنفسنا مؤونة^(١) التضايق منهم،
ولا حتى مؤونة الصبر على أخطائهم وحمقاتهم؛
لأننا سنعطف على مواضع الضعف والنقص،
ولن نفتش عليها لنراها يوم تنمو في نفوسنا بذرة العطف!
وبطبيعة الحال لن نجشم أنفسنا عناء الحقد عليهم،
أو عبء الحذر منهم،
فإنما نحقد على الآخرين، لأن بذرة الخير لم تنم في نفوسنا نمواً كافياً،
ونتخوف منهم لأن عنصر الثقة في الخير ينقصنا،
كم نمح أنفسنا من الطمأنينة والراحة والسعادة،
حين نمح الآخرين عطفنا وحبنا وثقتنا،
يوم تنمو في نفوسنا بذرة الحب والعطف والخير!
حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أظهر منهم روحاً،
أو أطيب منهم قلباً، أو أرحب منهم نفساً،
أو أذكى منهم عقلاً، لا نكون صنعنا شيئاً كبيراً..
لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة،
إن العظمة الحقيقية.

عندما نصل إلى مستوى معين من القدرة نحس أنه لا يعيبنا أن نطلب مساعدة الآخرين لنا،
حتى أولئك الذين هم أقل منا مقدرة!

١- مؤونة: عبء

ولا يغض من قيمتنا: أن تكون معونة الآخرين ساعدتنا على الوصول إلى ما نحن فيه.
إننا نحاول أن نصنع كل شيء بأنفسنا،
ونستكف أن نطلب عون الآخرين لنا،
أو أن نضم جهودهم إلى جهودنا..!

نستشعر الغضاضة في أن يعرف الناس أنه كان لذلك العون أثر في صعودنا إلى القمة.
إننا نصنع هذا كله حين لا تكون ثقتنا بأنفسنا كبيرة؛
أي عندما نكون بالفعل ضعفاء في ناحية من النواحي..
أما حينما نكون أقوىاء حقاً فلن نستشعر من هذا كله شيئاً..
إن الطفل هو الذي يبعد يدك التي تسنده وهو يتكفأ في المسير،
عندما نصل إلى مستوى معين من القدرة،
سنستقبل عون الآخرين لنا بروح الشكر والفرح..
الشكر لما يقدم لنا من عون..
والفرح بأن هناك من يؤمن بما نؤمن به نحن..
فيشاركنا الجهد والتبعة..

إن الفرح بالتجاوب الشعوري هو الفرح المقدس الطليق.
إننا نحن إن "نحتكر" أفكارنا وعقائدنا،
ونغضب حين ينتحلها الآخرون لأنفسهم،
ونجتهد في توكيد نسبتها إلينا،
وعدوان الآخرين عليها!

إننا إنما نصنع ذلك كله حين لا يكون إيماننا بهذه الأفكار والعقائد كبيراً،
حين لا تكون منبثقة من أعماقنا، كما لو كانت بغير إرادة منا،
حين لا تكون هي ذاتها أحب إلينا من ذواتنا!
أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم،
وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع.

إنه ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومثلنا السامية،
أو أن نتملق هؤلاء الناس، ونثني على رذائلهم، أو أن نشعرهم أننا أعلى منهم أفقاً.
إن التوفيق بين هذه المتناقضات، وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد:
هو العظمة الحقيقية.

إن الفرح الصافي هو الثمرة الطبيعية لأن نرى أفكارنا وعقائدنا ملكاً للآخرين،،
ونحن بعد أحياء.

إن مجرد تصورنا لها أنها ستصبح - ولو بعد مفارقتنا لوجه الأرض؟ زاداً للآخرين ورياً،
ليكفي أن تفيض قلوبنا بالرضى والسعادة والاطمئنان.

"التجار" وحدهم هم الذين يحرصون على "العلامات التجارية" لبضائعهم،
كي لا يستغلها الآخرون ويسلبوهم حقهم من الربح.

أما المفكرون وأصحاب العقائد فكل سعادتهم،

في أن يتقاسم الناس أفكارهم وعقائدهم ويؤمنوا بها،

إلى حد أن ينسبونها لأنفسهم لا إلى أصحابها الأولين.^(١)

سابع عشر: الأخلاق المناسبة:

"مما ورد من محاسن خلقه - صلى الله عليه وآله وسلم-؛ أعلم أنه ما يهتدي أحد من خلق الله - عز وجل - إلى معرفة ما حوى خلقه الحسن من المحاسن الكريمة، وجميل الأخلاق الكاملة العظيمة. وقد أجمل الله تعالى من وصفه في محكم تنزيله، ما لا تتسع الدفاتر لتفصيله. فقال في الذكر الحكيم: "وإنك لعلى خلق عظيم" فأعظم بما وصفه العظيم بكونه عظيماً!. فإنه لا يهتدي الخلق إلى إدراك كنهه^(٢) ذلك العظيم، تفصيلاً لمجموع محاسنه، وتعميماً. ولكني أذكر شيئاً مما ورد في ذلك من الأخبار بحسب التبرك والتذكار. روي عن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: خدمت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟

١- أفراح الروح- لسيد قطب

٢- كنه: جوهر وحقيقة

وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - من أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً^(١) قط،^(٢) ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه، وكان عنده رجل به أثر صفرة، فلما قام قال - صلى الله عليه وآله وسلم - للقوم: "لو قلتم له يدع هذه الصفرة".

وروينا عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: «لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاحشاً، ولا متفحشاً ولا صخاباً^(٣) في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، لكن يعفو ويصفح». وعنهما أيضاً قالت: «ما ضرب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة». وعنهما قالت: «ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - متصراً لنفسه من مظلمة ظلمها قط، ما لم ينتهك من محارم الله شيء، فإذا انتهك من محارم الله شيء، كان أشدهم في ذلك غضباً. وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً».

وعنها قالت: استأذن رجلٌ على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنا عنده فقال: «بئس^(٤) ابن العشيرة أو أخو العشيرة، ثم أذن له، فألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألتت له القول فقال: "يا عائشة إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه"^(٥).

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنهما - قال: ما سئل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شيئاً قط فقال لا.

وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: «كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان، حتى ينسلخ فيأتيه جبرائيل - عليه السلام -، فيعرض عليه القرآن، فإذا لقيه جبرائيل، كان - صلى الله عليه وآله وسلم - أجود بالخير من الريح المرسلة».

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأله أن يعطيه، فقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ما عندي شيء، ولكن اتبع علي، فإذا جاءني شيء قضيته، فقال عمر: يا رسول الله قد أعطيته، فما كلفك الله ما لا تقدر عليه، وكره - صلى الله عليه وآله وسلم - قول عمر. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله انفق ولا تخش من ذي العرش إقللاً^(٦)، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، وعرف البشر في وجهه لقول الأنصاري، ثم قال: بهذا أمرت».

١- خز: ما ينسج من صوف

٢- قط: أبداً، للنفي

٣- صخاباً: عالي الصوت

٤- بئس: للذم

٥- فحشه: القبح الشديد

٦- إقللاً: افتقار وقلة

وعن علي - رضي الله عنه - قال: كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب،^(١) ليس بفظ^(٢) ولا غليظ^(٣) ولا صخاب، ولا فحاش ولا عيَاب ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤس منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، إذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له، حتى يفرغ حديثهم عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومسألته، لا يقطع على أحد حديثه حتى يجور، فيقطعه بنهي أو قيام^(٤).

قيل: "من استغنى بعقل نفسه اختل، ومن أُعجب برأيه ضل، ومن صارع الحق ذل، ومن أكثر المزاح مل، ومن ترك الكبر جَلَّ".

وقال الحكماء:

"من ساء تدبيره أهلكه جده، الغرة^(٥) ثمرة الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم، وآفة النعم قبيح المن، آفة الذنب حسن الظن، الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء، من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أيقظته المكاييد.^(٦) من قَرَّب السَّفلة وأطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان، من عفا تفضل، من كظم غيظه فقد حلم. ومن حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظَفِرَ".^(٧)

١- لين الجانب: أخذهم بالملاطفة

٢- فظ: القاسي والمسيء

٣- غليظ: خلاف رقيق

٤- مرآة الجنان وعبرة اليقظان - للرافعي

٥- الغرة: الغفلة

٦- المكاييد: الخدائع والمكر

٧- المستطرف في كل فن مستطرف - للأبشيبي